٢ ـ القلب المسكين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبتـه وهي ترقص حين عرفته — غيرَ ما رأيتها أنا وغيرَ ما رأى الناس . كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فم جميـل يتمُّ جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغة من هذا الفم الجميل يُتم بها حديثاً قديماً كان بينهما . واعترانا منها الطربُ واعتراه منها الفكر ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق ، ومرت علينا شعاعاً في الضوء ووقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسم مكتوب . . .

وقوى إحساسُ الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدلُّ على نفسه ضروباً من الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الاحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة بفنون الرمز والإيماء وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة ، والمرأة لحظاتٌ تكون فيها بفكرين حينما يكون أحدُ الفكرين ماثلاً أمامها في رجل تهواه ؛ ففي هذه الساعة تتحدثُ المرأة بكلام فيه صمت يشرح ويفسر ، وتضطرب بحركة فيها استرخاءٌ يميل ويعتنق ، وتنظر بألحاظ فيها انكسارٌ يأمر ويتوسل ، وكانت هي في هذه الساعة ... فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تتقطع فيه من أسفٍ وحسرة ؛ ثم كانت له كالزهرة العبقةِ بينه وبينها جالها وعطرُها وهواؤها والجاسةُ التي فيه

وجعل يستشفُّها من خلال أعضائها وهي ترقص ، ثم قال لي : انظر ويحك ! لكأن ثيابها تضمُّها وتلتصق بها ضمَّ ذي الهوى لمن يهوى

قلت : ما هي إلا كهاتين اللتين ترقصان معها : امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث

قال : كلا ، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر تتحرك بدلاً من أن تُقرأ ، وتُرى بدلاً من أن تُسمع ؛ قصيدة بلا ألفاظ ولكنَّ من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره

قلت : والأخريان ؟

قال : كلا كلا ، هذا فن آخر ، فالواحدة من هؤلا المسكينات إنما ترقص بعِدَدِها . . . ترقص للخبز لا غير أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها ؛ إنها كالطاووس يتبختر في أصباغه ، في ريشه ، في خُيلائه ، بختراً يضاعفها الحسنُ ثلاثَ مرات . ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرها وأخضرها وأصفرها وأزرقها ، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشْيها ، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملوَّنة — لظهر في وحدهُ اللون الملِكُ بين ألوان هي رعيته الخاضعة

***

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قُبلةً في الهواء ... فقال صاحبنا : آه لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسة يدها درهما وقُبلة ...

قلت : ياعدوَّ نفسه ؛ هذه قبلة محرَّرة مسددة وقد رأيتم وقعتْ هنا ... ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة . تعشق القبلة وتخاصم الفم الذي يلقيها ، وتبغي العُشر وتتركه فارغاً من طيره . إن المرأة التي تحبك لا بد أن تنتهي إلى الجنون ما دامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير المكن

ثم بدأ فصل آخر على المسرح وظهر رجال ونساء وقصة وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيها وآخر يمثل شُرطياً فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثيابُ فارغة وكأنه الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحة الظاهر فقط ما دام الظاهر يُخلع ويلبس بهذه السهولة ؛ فكم في هذه الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت الباطنَ منهم لرأيتم إنما يشرِّفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر ... وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون . وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفجَرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة ... ليست الانسانية بهذه السهولة التي يظنها

(١) نشرت المقالة الأولى في العدد ١٧٣ من الرسالة

يظن والا ففيم كان تعبُ الأنبياء وشقاء الحكماء وجهادُ أهل النفوس ؟

العقدة السماوية فى هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الانسان إلا حيوانا متلطّفاً تلطيفاً إنسانياً ؛ ثم أراه الخير والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك انسانا وجثنى

قلت : ياعدوَّ نفسك ، فما تقول فى حبك هذه الراقصةَ وأنت حيوان ملطف تلطيفاً انسانياً ؟

قال : ويحك ! وهل العقدةُ إلا هنا ؟ فهذه مبذولةٌ ممكنة ، ثم هى لى كالضرورة القاهرة ، فلا يكون حبها إلا إغراءً بنَيلها ، ولا تكون سهولةُ نيلها إلا إغراءً لذلك الاغراء ؛ فأنا منها فى امرأة وحب ، ولكنى فى امتحانٍ شديد عَسِر أغالب ناموسا من نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة ، وأظهر قوتى على قوة الضرورة الميسرة بأسبابها ، وهى أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً وقهرا للنفس من قِبَل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهيّأة سهلة . فلو أن هذه المرأة المحبوبة كانت ممتنعة بعيدةَ المنال لما كانت لى فضيلة فى هذا الحب العفيف ، ولكنها دانيةٌ ميسرة على الشغف والهوى ؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى فضيلةَ نفسى

* * *

ومر الفصل الذى مثّلوه وما نشعر منه بتمثيل فقد كان كالصورة العقلية المعترضة للعقل وهو يفكر فى غيرها ، وكانت (الحقيقة) فى شىء آخر غير هذا . ومتى لم يتعلق الشعورُ بالفن لم يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهى وحدها التى تثير شعورَ الحب فى نفسه فيشعر من حسنها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجد فى معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صُنعت له وحده ، وتجعل له فى الزمان زمناً قلبياً يحصر وجوده فى وجودها

وليس فن الحب شيئاً إلا استطاعةَ الحبيب أن يجعل شهواتِ الحب شاعرة به ممتلئةً منه متعلقة عليه ، كأن به وحده ظهور جَسَدية هذا الجسد وروحانية هذه الروح . وكل ما يتزين به المحبوب للمحب ، فانما هو وسائل من المبالغة لاظهار تلك المعانى التى فيه كيما تكبر فيدركها الحب بدقة ، وتثور فيحسّها العاشق بعنف ، وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة

والشهوات كالطبيعة الواحدة فى أعصاب الانسان ، وهى تتبع فكره وخياله ؛ ولا تَفاوُتَ بينها إلا بالقوة والضعف ، أو التنبه والخمود ، أو الحدة والسكون ؛ غير أنها فى الحب تجد لها فكراً وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنها قد غيرت طبيعتها بسرٍ مجهول من أسرار الألوهية . ومن هنا يتأله الحبيب ، وهو هو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه فى وهم محبه يفرض فروضاً ، ويشرع شريعة من حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا فى الشهوة المؤمنة به وحدها

ومن ثم لا عصمة على المحب إلا إذا وجد بين إيمانين أقواهما الايمانُ بالحلال والحرام ، وبين خوفين أشدهما الخوف من الله ، وبين رغبتين أعظمهما الرغبةُ فى السموّ

فان لم يكن الفاسق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى الايمانين الحرص على مكانة المحبوب فى الناس ، وأشد الخوفين الخوف من القانون ... وأعظم الرغبتين الرغبة فى نتيجة مشروعة كالزواج

فان لم يكن شىء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو فى جراءة كفرين ، وحماقة جنونين ، وانحطاط سفالتين . وبهذا لا يكون فى الانسانين إلا دون ما هو فى بهيمتين

* * *

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هى على المسرح . ظهرت هذه المرة فى ثوب مركيزة أوربية تحاصر عشيقا لها فيرقصان فى أدب أوربى متمدن ... متمدن بنصف وقاحة ؛ متأدب ... متأدب بنصف تسفّل ؛ مشروع ... مشروع بنصف كفر ؛ هو على النصف فى كل شىء حتى ليجعل العذراء نصف عذراء ؛ والزوجة نصف زوجة ...

وكان الذى يمثل دور العشيق فتاةٌ أخرى غلامية مجمّمةَ الشعر[1] ممسوخةً بين المرأة والرجل . فلما رآها صاحبنا قال : هذا أفضل . . . .

(١) المجممات هن اللواتى يحلقن شعورهن جمة (بضم الجيم) أى يقصصنها كما يفعل نساء هذه الأيام تشبهاً بالرجال . وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الاسلام عنه كراهة لهذا التشبه . نقص الشعر (على المودة) هو التجميم

وهشّت الحسناءُ وتبسّمت وأخذت فى رقصها البديع فانفصل عنى الصديق وأهملنى وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد نظرة ، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه ، ورجع وإياها كأنه فى عالم من غير زمننا تقدّمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة . وكانت جملةُ حاله كأنها تقول لى : إن الدنيا الآن امرأة ! وكان من السرور كأنما نقله الحب الى رتبة آدم ونقل صاحبته الى رتبة حواء ، ونقل المسرح الى رتبة الجنة

والعجيب أن القمر طلع فى هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف فى الحديقة فكأنه فعل هذا ليُتمّ الحسن والحب . وأخذ شعاع القمر السماوىّ يرقص حول هذا القمر الأرضى فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبنا وبين الأرض والسماء والقمرين

ما هذا الوجه لهذه المرأة ؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبّر تعبيراً جديداً بقسماته وملامحه الفتانة . كل البياض الخاطف فى نجوم السماء يجول فى أديمة المُشرق ؛ وكل السواد الذى فى عيون المها يجتمع فى عينيه ؛ وكل الحمرة التى فى الورد هى فى حمرة هاتين الشفتين

ما هذا الجسمُ المتزن المتموجُ المفرَغ كأنه يندفق هنا وهنا ؟ إنه جسم كامل الأنوثة ؛ إنه صارخ صارخ ؛ إنه عالم جمالٍ فيه كما تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه «جهةُ فوق» و «جهة تحت» . لو امتدت له يد عاشقه لجعل فى خمسِ أصابعها خمسَ حواس . . . .

ما هذا ؟ ما هذا ؟ لقد خُتم الرقصُ بقبلة ألقاها الخليل على شفتى الخليلة ، وكانت تركت خصرها فى يديه وانفلتتْ تميل بأعلاها راجعة برأسها الى خَلْف ، نازلةً به رُوَيداً رويداً الى الأرض ، هاربة بشفتيها من الفم المُطِل عليها . وكان هذا الفم ينزل رُويداً رويدا ليدرك الهارب ...

وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتةً الى .... ثم تلقّت القبلة

أما هو ؟ أما مجنوننا ؟ أما صاحب القلب المسكين ؟

(لنطا) «لها بقية» مصطفى صادق الرافعى

الأدب والخلود

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

عشت سنين عديدة — أكثر عمرى — بالخيال والهم . وكانت دنياى تحد من كل ناحية بجدران مكتبتى ومنظارى المكبر الذى أتدبر به الحياة وأستعين على درسها بقوته وقدرته على الجلاء والكشف والتوضيح ، الكتب الكثيرة المرصوصة على رفوفها . وكانت رياضتى حين آكل وأتعب ويبلغ منى الجهد أن أدير عينى فى صفوف هذه الكتب التى كنت أنتق أنفس الطبعات منها وأحسنها ورقا وأجودها جلداً وأحلاها منظراً . فلما صدمتنى الحياة — مرة وأخرى — ورأيت أزهار آمالى وورق آرائى التى كنت أحسبها خالدة النضرة وائعة البهجة ولا أظن بها إلا أنها ستظل رفافة أبداً — أقول لما رأيتها تصفر وتتساقط وتذوى وتجف وتتكسر وتتفرك فى يدى وتحت قدمى راعنى عظم جهلى ، وهالنى الشعور بالوحدة والوحشة والغربة فى هذا العالم الزاخر الذى احتجت برغمى أن أخوض بحره وأرمى بنفسى فى عبابه وأنا لا أدرى كيف أسبح فيه وأتقى الغرق

وأنصف الكتب فأقول إنها لم تخذلنى ولم تخدعنى ولم تتعمد أن تزيف صور الحياة ، ولكنى اقتصرت عليها واستغنيت بها ، فصرت لا أرى الحياة إلا بعيون أصحابها ، ولا أحسها بغير أعصابهم ، حتى ليخيل إلى الآن — من حيث معرفتى يومئذ بالحياة وإحساسى بوقعها وفهمى لها وتجربتى لأحوالها — أنى كنت أشبه بكتاب مختارات من جملة ما قرأت وحصلت ، ولست بانسان له وجود وشخصية وكيان مستقل . ومن متناقضات ذلك العهد أنى كنت من أعظم الكتاب تحمساً للدعوة إلى تحرير الأدب العربى من رق التقليد وإن كنت أنا لا أعدو أن أكون نسخة مختصرة لكل قديم من الآراء والمذاهب والاحساسات والخوالج . وليس هذا ذنب الكتب وإنما هو ذنبى . على أنى لو كنت وجدت من يرشدنى لرشدت ولا تنفعت بما ضاع من عمرى ، ولكنى لم أجد هذا المرشد والناصح الأمين والقدوة الحسنة لا فى المدرسة ولا فى البيت ولا فى الاخوان ، فقد كان شأنهم كشأنى ، سوى أنهم